المحاضرة الرابعة: اللسانيات العربية والغربية: التأثير والتأثر

توطئة: مفهوم المصطلح

يعد مصطلح اللسانيات المصطلح العلمي العربي الذي يقابل المصطلح الغربي "linguistique" و "linguistic" في الثقافة الغربية، وقد تمت ترجمة هذا المصطلح ونقله إلى الثقافة العربية، وكان ذلك في إطار فعاليات المؤتمر الدولي للسانيات واللغة العربية، المنعقد في الجامعة التونسية، في تاريخ: 19/13 ديسمبر 1978م، ومن ثم، تم الإجماع عليه، واعتماده في الهيئات العلمية العربية، ولهذا المصطلح مرادفات في اللغة العربية، ومنها: الألسن، والألسنية، وعلم اللسان، أو من جذر لغوي آخر، وهو: اللغويات واللغوية وعلم اللغة.

1-نشأة الدرس اللساني العربي الحديث:

يرى بعض الباحثين العرب المحدثين أنه يمكن حصر أهم المحطات التاريخية التي هيأت للثقافة العربية فرص الانفتاح على الدرس اللساني الغربي الحديث، في ما يلي:

-النهضة الفكرية العربية الحديثة، وما رافقها،

-المرحلة الاستشراقية وما رسخته من أعراف لغوية،

-إرهاصات تشكل الخطاب اللساني الحديث.

ولئن اختلفت ملابسات التلقي تلك، فإن بينها وشائج قربي تمكننا من الكشف عن المناخ المعرفي العام لتلقي اللسانيات في الثقافة العربية.

-اللسانيات العربية واللسانيات الغربية: المفهوم والأبعاد:

المراد باللسانيات العربية العلم اللغوي الذي أنجزه اللغويون العرب المعاصرون، فما أنجزه هؤلاء الباحثون العرب من تأمل لساني وتفكير وكتابة يعد لسانيات عربية، ولكن بشرط أن يكون موضوع هذا العلم أو البحث اللغوي هو اللغة العربية، أو أجزاء منها.

واللسانيات الغربية، هي الدراسة العلمية لظاهرة اللغة الطبيعية، وهو بالعبارة السوسيرية (دراسة اللغة لذاتها وبذاتها)، وهي تتمثل في اللسانيات العامة (السوسيرية). وذلك لوصف وتحديد الأعمال والأبحاث العلمية في مختلف مجالاتها، ولم يقتصر هذا التداول عند فئة معينة بل شمل جميع المهتمين بهذا الميدان، انطلاقا من المصنفات التعليمية و التحصيلية التي تحاول عن كثب توطين هذه المعرفة العلمية الجديدة في العالم العربي.

وتفصيلا لذلك، نجد لسانيات وصفية، ولسانيات وظيفية، ولسانيات تفسيرية، وذلك للدلالة على السياق المعرفي لها، أو للدلالة على المدارس اللسانية، والمؤسسات العلمية، نحو لسانيات أوروبية، ولسانيات أمريكية، بل أكثر من ذلك، قد ترتبط بعلماء معينين، كلسانيات سوسير، ولسانيات ديكارت، ولسانيات تشومسكي، ولسانيات سيمون ديك... وغير ذلك وهي تمثل النظريات المحورية، أو المناهج اللسانية الكبرى، والمهيمنة.

-تأثير اللسانيات الغربية على اللسانيات العربية يبدو جليا مدى انفتاح العلماء العرب على الدرس اللساني الغربي الحديث، ومن صور ذلك، إلقاء إبراهيم اليازجي محاضرة بعنوان: «أصل اللغات السامية 1981م، تعرض فيها إلى الأصل المشترك الذي يجمع العربية والعبرية والآرامية متتبعا في ذلك، المنهج التاريخي، ويبرز هذا من خلال التركيز على تصنيف اللغات بحسب قرابتها، ووجود لغة أصل لكل أسرة على حدة.

وكما تبرز تجليات المنهج التاريخي المقارن أكثر وضوحا عند جرجي زيدان في كتابه «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» يدل استعمال زيدان لعبارة (العلوم اللغوية) إطلاعه على جديد البحث اللغوي الغربي الأوروبي.

ويتمثل هذا في مقارنته بين العربية والعبرانية ولغات أخرى من جهة الألفاظ.

-ويعد إبراهيم أنيس -الباحث اللغوي العربي- أحد رواد الدراسات اللغوية العربية، متأثرا بالمنهج الوصفي في كتابه "الأصوات اللغوية"، وصف أصوات اللغة العربية وصف جديدا، كما أنه ركز أيضا على البنية الصرفية والتركيبية والدلالية للغة العربية، وقد زاوج الباحث في كتابه هذا بين المنهج الوصفي والمهج التاريخي والمنهج التحليلي،وفي كتابه "دلالة الألفاظ" اعتمد فيه على تطبيق مفاهيم النظريات الدلالية الحديثة المستوحاة من مفاهيم بلومفيلد البنيوية، ومقارنتها بما يستدل عليه من كلام العرب، ويعد كتاب "مناهج البحث في اللغة" لتمام حسان 1955م، المحاولة الأولى في تقديم مناهج البحث اللساني الغربي، الحديث تناول فيه دراسة البنية اللسانية وفق منهج التحليل البنيوي الغربي، وقد اعتمد فيه على المنهج الوصفي، وحاول تطبيقه على اللغة العربية، وكما أنه قد تحدث فيه أيضا عن أراء وأفكار بعض اللغويين العرب القدامى في اللغة.

-عبد الرحمان أيوب في كتابه «دراسات نقدية في النحو العربي» 1957. استبدل بالمنهج الوصفي التحليل الفلسفي والمنطقي، آخذا في ذلك بمنهج المدرسة التحليلية الشكلية في أمريكا الشمالية ويرى أن

النحو العربي القديم متأثر بالفكر اللغوي الهندي لاعتماده على أشكال تركيبية، وتأثر أيضا بالفلسفة اليونانية المنطقية من خلال الاعتماد على التعريفات المنطقية في دراستهم للغة.

-عبده الراجحي تأثر في كتابه «الدرس النحوي العربي والدرس الحديث بحث في المنهج»، يظهر تأثره بالدرس اللغوي الغربي الحديث في اعتماده في كتابه هذا، على المنهجين: الوصفي والتحويلي اللغويين.

-أحمد المتوكل، الباحث اللساني المغربي، يعد رائد الدرس اللساني العربي الحديث في الوطن العربي، لقد كرس جل أعماله لقراءة التراث العربي قراءة ثانية وفق ما تقتضيه المنهجية الراهنة، ومؤلفاته شاهدة على ريادته لمجال الدرس والبحث اللساني المعاصر وفي كتابه «قضايا المنهج في اللغة والأدب 1982»، اعتمد فيه على المنهج الوظيفي، يقول عن هذه الدراسة:«سعيْنا فيها إلى إرساء أسس منهجية تمكن من فهم الفكر اللغوي العربي القديم، ومقارنته بما أفرزته وتفرزه الدراسات اللسانية الحديثة من نظريات، ومن استثماره عند الحاجة في وصف اللغة العربية، ونشير ونحن منطلقون إلى أن جهود هذه الزمرة من اللسانيين لا يذكر ذاكر من أولئك الباحثين غير اللسانيين الذين اختصوا في الحديث عن مناهج للتعامل مع التراث. ثم يقول: «ولا يسعنا أمام هذا الصمت إلاّ أن نقف موقف المتسائل المستغرب، إذ من المعلوم أن أبسط المبادئ المنهجية يحتم على المشتغل بالمناهج أن ينطلق متبينا أو منتقدا أو رافضا من المحاولات التي قِيم بها في المجال الذي يبحث فيه».

من صور تأثر الأنحاء الغربية القديمة بالنحو العربي، نذكر:

- النحو السرياني: تأثر السريان في وضع نحوهم بالنحو العربي، وكان ذلك بعد دخول العرب بلاد السريان فاتحين، النحاة السريان في القرن العاشر، وما بعده يعكسون مناهج المدارس النحوية العربية الشهيرة، البصرة والكوفة، ومن أمثلة ذلك، كتاب الأشعة لابن العبري الذي ألفه على منوال كتاب المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري.
- اقتفى نحاة القبطيين في تقسيمهم الكلم في اللغة القبطية تقسيم النحاة العرب، وهو التقسيم الثلاثي للكلم إلى اسم وفعل وحرف.
- النحو العبري أنشئ على منوال النحو العربي، وقد ازدهرت الدراسات اللغوية العبرية بعد ظهور الإسلام.
- ريادة العرب في فن صناعة المعاجم، فقد سبقوا الهنود بقرون، الذين عرفوا صناعة المعاجم في القرن الثاني عشر، فهذه الأسبقية ليست مقررة بالنسبة للهنود وحدهم، بل بالنسبة للعالم

أجمعه، يقول (Hayood) ونحن نصر على أن نستشهد برأي غير العرب حتى لا يتهم العالم بالتعصب إن كان عربيا، يقول: «الحقيقة أن العرب في مجال المعاجم يحتلون مكان المركز سواء في الزمان أو المكان بالنسبة للعالم القديم و الحديث، وبالنسبة للشرق والغرب»، وقد تفنن العلماء العرب في ترتيب الحروف العربية فترتيب الخليل غير ترتيب سيبويه، وترتيب ابن جني يختلف قليلا عن ترتيب سيبويه.

النحو العربي بين الأصالة والأثر الأجنبي:

لإثبات هذه الفكرة هناك ثلاثة آراء مختلفة، رأي يجعل النحو العربي متأثرا بالأنحاء الأجنبية هندية أو يونانية!؟ ويمثله "إبراهيم بيومي"في كتابه " منطق أرسطو والنحو العربي"، يرى أن النحو العربي متأثر بالفكر اليوناني والمنطق الأرسطي، وأنه نشأ في بيئة متشعبة، وتبويبه كان على أساس المنطق الأرسطي وأخذ منه مقولاته النحوية.

رأي ثاني ينفي هذا التأثر، ويقر بعربية النحو العربي الخالصة، فيقول: «لعلي أسرع فأقول، إن النحو العربي نشأ وتطور في مناخ إسلامي عام، وأنه ظل يتنفس جوّه حتى استوت له وسائله ومناهجه، وأقول إنه مناخ إسلامي». ثم يقول: «ولعلي أسرع أيضا فأقول إن هذا المناخ الإسلامي العام هو الذي أنتج علوما إسلامية تشاركت في النشأة، و تساهمت في أسباب التطور وفي وجوه التأثر والتأثير».

ثم يقول –أيضا– وأحسب أنّ وضع النحو العربي في هذا السياق يعين على فهم الأسس التي صدر عنها أصحابه في رسم منهجه على وجه الخصوص، وأول هذه العلوم.

1– القراءات القرآنية اشتهر النحاة العرب القدامى بالقراءة، فكانت القراءات من أهم العلوم الإسلامية، لأنها أوثق اتصالا بنص الوحي الإلهي، ولأنها هي التي أصلت منهج النقل اللغوي بما أصلت من الاعتماد على الرواية ليس غير.

القراءات القرآنية؛ علم نقلي لا يعرف التعليل ولا الفلسفة ولا المنطق؛ إنها علم غير عقلي على وجه الخصوص.

2– تفسير القرآن بالقرآن:

- هكذا كان النحو العربي غير عقلي في مراحل نشأتها الأولى لاعتماده على الرواية والنقل.
- البلاغة العربية، ركزت في دراسة القرآن الكريم على الإعجاز.

- أصول الفقه، وعلم الكلام، يجمع أصول الفقه بين النقل والعقل، في حين يتضمن علم الكلام الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية.
- اختلاط النحو بالبلاغة، في كتب النحو العربي.
- صلة النحو العربي أوثق ما تكون بعلمي الكلام والأصول؛ أي أن هذه العلوم الثلاثة كانت أكثر العلوم تبادلا للتأثر والتأثير هذا هو الجو العام الذي نشأ فيه النحو وتطور، كما نشأت العلوم الأخرى وتطورت، فقد أمدته القراءات بالنقل والاعتماد على الرواية، أو أمدته الأصول وعلم الكلام بالطابع العقلي.

من هنا كانت دعوتنا إلى تلمس مصادر هذا المنهج في داخل البيئة الإسلامية، وليس من خارجها.

وقد كرر المستشرق " جيرار تروبو" في ختام بحثه، أن علم النحو أعرب العلوم الإسلامية، وأبعد عن التأثير الأجنبي في طورها الأول.